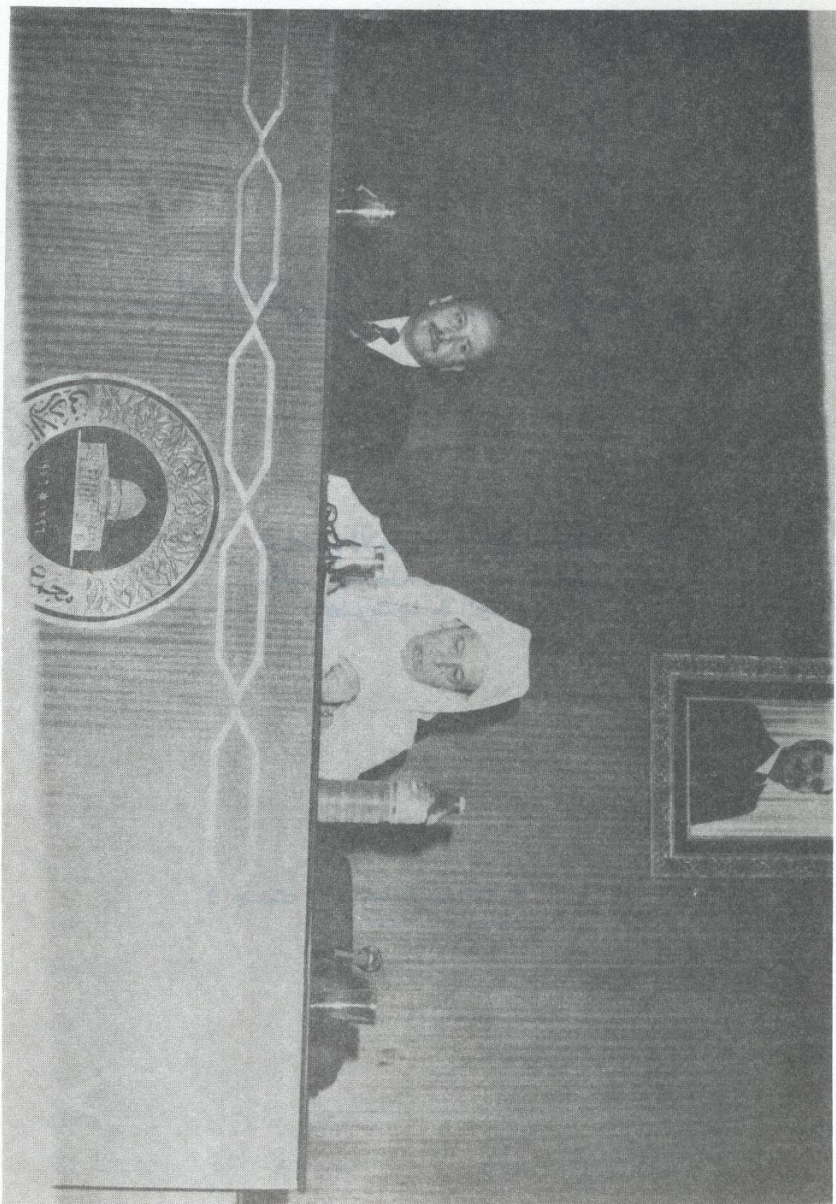


مساهمة المغرب في بناء الحضارة الإسلامية

محاضرة للأستاذ عبدالله كئون
رئيس رابطة علماء المغرب
(عضو شرف في المجمع)

(السبت 27 جمادى الآخرة 1403هـ).

9 نيسان 1983م.)



كان قيام الدولة الإدريسية سنة 172، إيذاناً بانفصال المغرب عن الخلافة العباسية، وميلاد شعب متميز في المجموعة الكبرى من الشعوب التي تكون الدولة الإسلامية. ولم يكن المغرب أول من انفصل عن الخلافة العباسية، فقد سبقته الأندلس حين استولى عليها عبدالرحمن الداخل، وأسس فيها الدولة الأموية سنة 138، أي بعد ست سنوات فقط من سقوط الخلافة الأموية في المشرق.

ويتشابه السببان الباعثان على خرق الوحدة السياسية للدولة الإسلامية: فعبدالرحمن الداخل قام منتقماً لذويه وأسرته من بني أمية، ومحاولاً إحياء خلافتهم التي انقرضت، والمولى إدريس الأول كان مطالباً بحق أهل البيت في الخلافة، ولا سيما بعد أن وقعت البيعة بها لأخيه محمد النفس الزكية، وأواخر أيام بني أمية، بحضور أبي العباس المنصور العباسي، وأفتى الإمام مالك بصحة هذه البيعة، وبطلان بيعة المنصور، لأنها كانت على سبيل الإكراه، فعذره في الخروج واضح، وحقه أوجب من حق عبدالرحمن الداخل.

والمهم الآن هو النظر في النتائج، لا في الأحقية، فمن المؤكد أنه لولا استقلال الأندلس لما بلغت ما بلغت من التقدم والازدهار.

والمغرب مرّ عليه، منذ الفتح الإسلامي سنة 62، أكثر من قرن وهو تحت حكم الولاة الذين يأتون من المشرق، من غير أن يتغير من أمره شيء، بل بالعكس، أصبح ميداناً للشعوذة وظهور المتنبئين، وتقاطرت عليه فرق الخوارج، يجربون حظوظهم في التمرد والاستيلاء على السلطة، وذلك لبعده عن عاصمة الخلافة ومقر الحكومة المركزية، ووقوعه في أقصى البلاد التي لا ينالها من عناية الدولة إلا القليل.

فلما انتصبت الدولة الإدريسية، قضت على مختلف النزعات المخالفة للسنّة، وطاردت الخوارج، وبنّت العاصمة الروحية للبلد، وهي مدينة فاس، واستقبلت وفود العرب الفارين من الظلم: أندلسيين وقيروانيين، وانتشر مذهب الإمام مالك في العبادات والأحكام بموجب ميل الدولة إليه، إذ كان رحمه الله، من مناصري دعوة العلويين، وأفتى، كما سبق القول، بترجيحها على بيعة العباسيين. وأنشئ جامع القرويين بمبادرة من سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان، وهو الذي أصبح منارة مشعة للعلم والمعرفة في غرب أفريقيا والعالم الإسلامي قاطبة. وبرزت شخصية المغرب كدولة لها كيائها ومقوماتها الروحية والمادية التي تحفظ وحدتها، وتضمن بقاءها على الدوام والاستمرار. وهكذا وضعت الأسس الحضارية للمغرب متأثرة بحضارة دمشق بحكم التبعية لها أيام الولاة، وما حمله معهم مهاجرة القيروان وقرطبة، وما نشأ بعد ذلك من التمازج بين المغرب وهذه البلاد، فهي حضارة عربية أصيلة حافظ عليها المغرب من عهد الأدارسة إلى أيام المرابطين، حين قوي التأثير والتأثير، واستمرت إلى عهد الموحدين، الذين تبنا أصولها، ورفعوا قواعدها بالعلم والمعرفة والدولة الواسعة، وفي أيام المرينيين اكتسبت طابعاً خاصاً، ولا سيّما في المعمار والفن، وهو الطابع الذي ما تزال تحافظ عليه إلى الآن، وتتميز به عن البلاد الإسلامية الأخرى، لأنها لم تتأثر بما تأثرت به هذه البلاد من روح العجمة أيام العباسيين، والمماليك، والحكم العثماني الذي طرق أبواب العالم الإسلامي إلى حدود تلمسان، ولكن المغرب بقي خارجاً عنه، وواقفاً منه موقف الند، وذلك هو ما يعطي للمغرب هذه المكانة الدولية التي تسلكه في عدد الدول الكبيرة، ذات الشأن في السياسة والسلطان، فضلاً عن الصورة

العربية الأصيلة لحضارته، التي تبهر حتى أخواننا العرب الذي يزورونه لأول مرة، ولا يكونون يتصورونه على هذه الحال.

ولا يستكثر هذا الذي ذكرناه على الدولة الإدريسية الصغيرة، فإن عزيمة أهل البيت وهمتهم وطموحهم، ومالي لا أقول وبركتهم، إذا كانوا في مثل ديانة إدريس الأول وخلفائه ونصحهم وإخلاصهم للأمة، تفعل الأعاجيب، ومثال الشمال المغربي أعظم دليل على ذلك، فإن مملكة فاس وما إليها، إذا كانت قد نشأت عربية الروح واللسان فذلك مما لا غرابة فيه، ولكن الأمر المستغرب هو أن بقية هذه الدولة التي لجأت إلى الشمال، بعدما أخرجها موسى بن أبي العافية من عاصمتها فاس، واستولى على جل أعمال المغرب، فاستقرت في قلعة النسر بأعلى سماتة من قبائل الناحية الجبلية، تحت إمارة القاسم كنون، وهي الإمارة التي يسميها المؤرخون بالدولة الإدريسية الثانية، هذه الإمارة فعلت ما لم تفعله الدول الكبيرة التي حكمت المغرب، وذلك أنها عربت قبائل الشمال كلها، الجبلية والغمارية، وغرست فيها حب العلم وحفظ القرآن، فصارت حصناً من حصون لغة الضاد، فهي لا تتكلم إلا بالعربية ولا تعرف غيرها، واشتهر ابناؤها بحفظ القرآن، وتخريج أكبر عدد من حفاظه في المغرب، بحيث صاروا هم أكثر معلميه في المدن والقرى، بالشمال والجنوب، وهذا إلى العدد العديد من العلماء الذين نبغوا منهم في مختلف العلوم والفنون.

أليس هذا من بركة آل البيت؟ وأما قبل وبعد، ألم يكن قيام الدولة

الإدريسية خيراً وبركة على المغرب وأهله؟

أليس قيامها هو الذي مهد لقيام المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين

والعلويين، وما ظهر أيام هذه الدول من نهضة علمية وحضارية جعلت

للمغرب شأنًا غير الذي كان عليه أيام الولاة، وما كان محتملاً أن يبقى عليه لو لم تقم الدولة الإدريسية؟.

أما أن النهضة العلمية والأدبية تأخرت إلى ما بعد القرن الرابع، فإنها كذلك في بقية الأقطار العربية التي لم تكن مركزاً للخلافة، وكانت هذه الأقطار تعيش النهضة الكبرى التي شهدتها دمشق ثم بغداد، ولو من بعيد، فعلمائها وأئمتها علماء وأئمة لتلك الأقطار، وأدباؤها وشعراؤها أدباء وشعراء للأمة العربية أينما وجدت. وهل هناك من يقول أن الإمام مالك وأبا حنيفة والشافعي مثل هم ملك خاص للبلاد التي أنجبتهم وأقاموا فيها؟ وبالمثل، هل الجاحظ وابن قتيبة وأبو حيان التوحيدي وأبو تمام والبحثري والمنتبي إلا تراث مشترك بين أبناء العروبة كلهم، مشرقهم ومغربهم، لأن المجتمع الذي أوجدهم هو مجتمع النهضة العربية الكبرى، الذي ساهم في تكوينه جميع البلاد العربية والمستعربة، فلما لم يعد له وجود لم يعد لمتلهم وجود؟!!

وهذا ما خفي على بعض أهل العلم والأدب، فراحوا يغمزون ويلمزون الأقطار التي تأخرت نهضتها عن هذا العهد، ولا سيما في المغرب، وهم من يلزمهم ذلك، وإن عاشوا في المشرق، لأن بلادهم لم تكن مهدياً لأولئك النبغاء ومنشأ لهم، وهم ليسوا بأولى بهم من غيرهم.

يحكى أن الصاحب بن عباد لما سمع بكتاب (العقد الفريد)، لابن عبد ربه، اشتدت رغبته في اقتنائه والاطلاع عليه. وعندما حصله تصفحه قال: "هذه بضاعتنا ردت إلينا"، كنت أظن أنه يشتمل على شيء من أخبار بلادهم فإذا هو لا يعدو من أخبار بلادنا، ردوه إلى صاحبه، لا حاجة لنا به. ومنذ قال الصاحب هذه الكلمة والناس يحملونها محمل الزرابة على ابن عبد ربه وكتابه، وهي كذلك في الظاهرة، إلا أنهم يغفلون عما تخفيه وراءها

من حقيقة تاريخية عن واقع الحياة الأدبية في الأندلس على عهد ابن عبد ربه، وهو عهد حكام قرطبة من بني أمية.

فقد كان ذلك العهد في الحقيقة امتداداً لعهد الخلفاء الأمويين في دمشق: السياسة سياستهم، والاجتماع والأدب ما كانا عليه أيام عبدالملك بن مروان وأبنائه في العاصمة العربية الخالدة. وفيما كانت بغداد تبني مجدها ومجد العرب العلمي، على أساس النقل والترجمة، وتصدر الفكر والحضارة بالافتباس من الأمم التي سبقتهم في هذا الميدان، كانت قرطبة ما تزال تركز صبغتها العربية، فتوفد رجالاً للتضلع من الثقافة العربية الإسلامية في منابعها الأصلية بالمدينة وغيرها، وتستقبل آخرين من أعلام هذه الثقافة الواردين عليها من المشرق، كأبي علي القالي، وصاعد البغدادي، فيلقون من الحفاوة والأكرام ما كان يلقاه الأطباء والفلاسفة حينذاك في بغداد عاصمة العباسيين.

ولأمر ما كان ظهور كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، في الأندلس قبل ظهوره في المشرق، موطن مؤلفه.

وأذن فإن ابن عبد ربه لم يكن إلا حاكياً لصدى الثقافة العربية المنتشرة في بلاده، ومعبراً أميناً عن التيارات التي توجه هذه الثقافة.

ويديهي أننا لا نعني انصراف بغداد عن الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية وتشجيعها، ولا إهمال قرطبة إهمالاً كلياً للعلم والفلسفة، وإنما نقصد أن هذه الحالة التي كانت غالبية على كل من العاصمتين.

وحديثنا عن الأندلس يشمل المغرب العربي كله، ففي القيروان، بالمغرب الأدنى، وفي فاس، بالمغرب الأقصى، لم يختلف الاتجاه عما رأيناه في

قرطبة، وأن لم تبلغ هاتان العاصمتان قط مبلغ قرطبة في نمو الأدبية وازدهارها، لأسباب معروفة.

وأما متى تنبأ المغرب مكان الصدارة في الحياة الفكرية العربية، وأسهم مساهمته الفعالة في تقدم هذه الحياة، فذلك حين توحد على يد أمراء المسلمين من ملوك المرابطين، ثم على يد خلفاء الموحدين، وتابع طريقه بعد ذلك إلى هذا اليوم، فقد كانت الانتكاسة التي حلت بالأندلس بعد انقراض دولة الأمويين وقيام ملوك الطوائف، تؤذن بانحسار المدّ العربي في هذه البلاد، لو لم يسارع البطل المغربي العظيم يوسف بن تاشفين لانقاذها. وفضل هذا الملك في استرجاع الأندلس إلى حظيرة العروبة والإسلام، بعد أن أشرفت على الضياع، لا يعادله إلا فضل فاتحها الأول طارق بن زياد، المغربي.

ومعلوم أن الشرارة التي أعدت الغرب الأوروبي، فأقامت فيه هذه المدينة الحديثة، إنما انبعثت إليه من الأندلس في هذا العهد، فإن فلسفة ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر، وطبّهم هما اللذان فتحا أعين الأروبيين على حقائق العلم الصحيح، ونتائج المعرفة المبنية على التجربة والمشاهدة. وهؤلاء الأعلام إنما نبغوا في أيام المرابطين، وإنما آتوا أكلهم الشهى في أيام الموحدين. فمن الثابت تاريخياً أن الخليفة الموحي يوسف بن عبدالمؤمن هو الذي حمل ابن رشد على تلخيص فلسفة أرسطو وتهذيبها، وكتابة ما كتبه عليها من الشروح والتعليق. كان هذا الخليفة أشبه الموك بالمأمون العباسي في الشغف بعلم الحكمة، والعمل على نشرها. كان هو نفسه متحققاً بكثير من مسائلها، مشاركاً في جملة من فنونها. ويقول عبدالواحد المراكشي في كتاب المعجب: "أنه استظهر من الكتاب الطبي الملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه ممن أنواع الفلسفة".

وكان قد استوزر الفيلسوف أبا بكر من طفيل، وهو الذي دلّه على ابن رشد، فاستدعاه وافضى إليه برغبته المذكورة، كما حكى ذلك المراكشي في تاريخه عن تلميذ له اسمه أبو بكر بن داود القرطبي، قال: "استدعاني أبو بكر ابن طفيل يوماً فقال لي: سمعت أمير المؤمنين يشتكى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً، لقرب مأخذها على الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي لها لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه. قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس".

ويحكي ابن رشد عن انطباعه في أول لقاء له مع يوسف بن عبد المؤمن، على ما رواه عنه تلميذه المذكور، فيقول: (لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما، فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضلته إلى ذلك أشياء لم يبلغها قدرتي، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي، أن قال: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف. فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بالفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل. ففهم مني أمير المؤمنين الروح والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها، ويذكر احتجاج أهل الإسلام عليهم. فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من

المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنوية.

وأما عن النهضة الأدبية، فإن ما عرف الناس منها على عهد المرابطين ثم الموحيدين أعظم بكثير مما عرفوه على عهد من قبلهم. والمجموعات الأدبية الكثيرة التي تضم عدداً عديداً من أسماء الشعراء والكتاب النابغين في المغرب والأندلس، أنما صنفت في أيام توحيد المغرب، وبأسماء ملوكه وأمرائه، مثل قلائد الفتح بن خاقان، وذخيرة ابن بسام، وزاد المسافر لصفوان بن أدريس، وصفوة الأدب للجرابي، ما إليها، وهي الدواوين التي تضمنت طلبه صاحب ابن عباد، ولو رآها لما قال كلمته تلك، ولكن أنى له أن يراها وهي أنما ألقت بعد زمنه، في عهد اكتمال الشخصية الأدبية المغربية، وازدهار الثقافة العربية في هذه البلاد.

والعجب من المستشرق رينهت دوزي في ادعائه أن الحياة الأدبية بالأندلس قد اضمحلت بعد استيلاء المرابطين عليها. وها نحن أولاء نرى العكس، وقد خطاه في ذلك المستشرق الإسباني كارسيا كوميس، ولكنه عاد فوقع في مثل خطئه بحكاية الأقوال الصيبانية التي نسبها بنو الموتورين من الأندلسيين إلى يوسف بن تاشفين، وهي عقدة يصعب على الكتاب الأوروبيين أن يتخلصوا منها مهما تحلوا بصفة الإنصاف.

والآن نذكر بعض الأعمال التي قام بها أفراد من المغاربة في سبيل تقدّم الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، ورفع لوائها الخفاق في كثير من الآفاق.

فإلى جانب طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين، يجب أن يذكر الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني، الذي تنازل عن الملك لابن عمه يوسف، ومضى هو ينشر الدعوة الإسلامية، وفي ركابها، طبعاً، اللغة العربية بين أقطار أفريقيا

الغربية، فزهد في المال والجاه والنعمة بأرض المغرب الفيحاء، ودخل الصحراء التي يلفح سمومها ويقتل حرها، وتوغل في بلاد السوادين مبشراً بكلمة ربه، مقدماً بين يديه المصحف الكريم، فلم ينته حتى وصل إلى حدود غينيا. وهكذا خفقت راية الإسلام فوق السنيكال، ومالي، والنيجر، وتبع ذلك انتشار العلوم الإسلامية والعربية التي ما فتئت جامعة القرويين تغذي أبناء هذه الأقطار بلبانها حتى يومنا هذا.

وعلى ذكر القرويين فإننا لا نغفل دور هذه الجامعة في خدمة الثقافة العربية الإسلامية وتقدمها ونشرها في أقطار المعمور. ونقول في أقطار المعمور ونحن نعني ما نقول، فقد كرع من حياضها رجال لا يحصون من أهل المشرق والمغرب، ومن أوروبا أيضاً، وظلت منذ تأسيسها سنة 245 وهي منارة إشعاع فكري في العالم الإسلامي، إلى جانب شقيقتها جامعة الزيتونة وجامعة الأزهر.

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذكر النابغين من أبناء المغرب في مختلف العلوم: إسلامية وقديمة، ولذلك فإننا نكتفي ببعض الأمثلة التي فيها غنية عن الأكتار، ونبتدئ بالعلوم الإسلامية لشرفها.

ففي هذا الميدان من الاختصاص العلمي لا نكاد نحصي الشخصيات التي برزت في علوم الفقه والحديث والتفسير، منذ القرن الثالث عندما استقرت وضعية المغرب على ما ذكرنا من الاستقلال، بدءاً ببيحي بن يحيى راوية الموطأ عن الإمام مالك، فأبي محمد الأصيلي راوية البخاري، فأبي عمران الفاسي، وأبي هارون البصري، نسبة إلى بصره المغرب، ودراس بن إسماعيل، وعيسى بن سعادة، الذي تنازعه الفقهاء والمحدثون لما توفي بمصر، وابن الزويري الذي كان يضرب المثل بصحة فتواه، وابن العجوز وعثمان بن مالك

فقيه المغرب في وقته، الذي كان من أول من كتب على المدونة، وأبي إبراهيم الأعرج، والقاضي عياض، وعيسى بن الملجوم، وعلي بن حرزهم، وعبد الجليل القصري، وابن القطان، السلاجي، وأبي الحسن الصغير، وابن رُشيد، وابن الحاج صاحب المدخل، وزروق، وابن الشاط، وابن غازي، وابن بري، الخراز، إلى المتأخرين من علماء القرن التاسع والعاشر، فمن بعدهم إلى وقتنا هذا، فضلاً عن المئات ممن يعدون في الطبقة الثانية أو الثالثة من أهل هذه العلوم.

ويتعذر علينا أن نتكلم عن أعمالهم وأضافاتهم إلى مجالات المعرفة الإسلامية، فلنقتصر على تقديم واحد منهم فقط وهو القاضي عياض، الذي قيل فيه:

مشارق أنوار تبنت بسبته ومن عجب كون المشارق بالمغرب

وسبته هي بلده، وفي هذا البيت، تورية بكتابه (مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار)، وهو كتاب من الشهرة بمكان. وقد قيل في إجابة صاحب هذا البيت وهو الحافظ بن الصلاح:

وما فَضَلَ الأرجاءَ إلا رجالها وإلا فلا فضلٌ لتربٍ على تربٍ

وكان هذا العالم الفاضل محدثاً وفتياً وأديباً ولغوياً كبيراً. وخلف من الكتب الممتعة ما جعله أحد أعلام الفكر الإسلامي والعربي، وقد ترجمه بصفته الأديبة الفتح بن خاقان في قلائده، وألف فيه العلامة المقري كتابه (أزهار الرياض)، وهو يقع في أربعة مجلدات.

ومن كتبه الإسلامية الشهيرة (كتاب الشفا)، هذا الكتاب الذي غزاه العالم الإسلامي كله، عربية وعجمية، بحيث أصبح من الكتب المقدسة التي يتبرك

بتلاوتها ويستشفى بقراءتها، وهو في تحليل حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وسيرته، والذب عن كرامته وشرفه، ورد المطاعن والشبهات التي يوردها الملاحظة في هذا الصدد.

واشتهر كذلك من كتبه التاريخية (كتاب المدارك)، وضعه في حياة الإمام مالك وأصول مذهبه، وترجيحه على المذاهب، وتراجم أصحابه، والفقهاء من أتباع مذهبه من أهل الأقطار الإسلامية، ويقع في أربعة مجلدات.

وكتبه كثيرة يضيق المقام عن تتبعها، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. ولا بد أن نشير إلى ما خدم به علماء المغرب علم الفقه، وما أصّلوه به من القواعد وصحوه من الأوضاع، ولا سيّما في العصور المتأخرة، وأهم ذلك التوسع في قاعدة العمل التي اعتمدها الإمام مالك في مذهبه، ومرجعها إلى الترجيح بما عليه الناس من الأعراف، وبذلك نشأ عندهم ما يسمى بعمل أهل قرطبة، وعمل أهل القيروان، وعمل أهل فاس، بالإضافة إلى العمل المطلق الذي يأخذ به الجميع... وقد ألفوا في ذلك الكتب المتعددة، وخصوا بعض المسائل من العمل بالتأليف المستقل، كمسألة بيع الصفقة، ومسألة الجلسة، وهو ما يسمى في بعض البلاد الإسلامية بخلو الرجل، وفي الوقت الحاضر بالمركز التجاري. وبلغ ما يسمى بالعمل الفاسي أكثر من ثلاثمئة مسألة كلها مما لم يؤخذ فيه بالقول المشهور أو الراجح، بل بما جرى به العمل.

ولقد قال لي الأستاذ ميو، وهو من رجال القانون الفرنسي، وكنت لقيته بأحد الفنادق بالرباط: أتدري أننا قررنا في مؤتمر لاهاي للقانون الدولي اعتماد الفقه الإسلامي كمرجع أول؟ وزاد قائلاً: إن مسائل العمل عند فقهاء المغرب مما يدل على عبقريتهم، وأن مسألة بيع الصفقة بالخصوص هي من أعظم الاجتهادات التي سيؤخذ بها لا محالة في جميع القوانين الغربية، لأنها تحل

معضلة من المعضلات التي تعيشها الأسر الأرستقراطية، ويواجهها الملاكون على العموم في الأملاك التاريخية والقصور المشتركة.

وإنجاز آخر هو أعظم من ذلك، ونعني به مراجعة كتب الفقه التي ألفها المتأخرون من فقهاء المالكية، وتصحيح ما وقع فيها من أغلاط، ويراد بهم الأجاهرة، شراح مختصر الشيخ خليل بن إسحاق الجندي المصري المبين لما به الفتوى في مذهب الإمام مالك، وهم: الشيخ علي الاجهوري ومن تبعه من تلامذته، وغيرهم كالخرشي والزرقاني والشبرخيتي والدردير، وقد اتفق علماؤنا على أنه لا يجوز الاعتماد على هذه الشروح ولا الفتوى بما فيها إلا بعد مراجعة حاشية الشيخ محمد بن الحسن بناني على شرح الزرقاني، وحاشية الشيخ التاودي بن سودة عليه أيضاً، وحاشية الشيخ الرهوني على حاشية بناني، وشرح الزرقاني معاً، ويخص شرح الزرقاني بالذكر لأنه أمثلها وأكثرها تحقيفاً، وإلا فبقية الشروح الأخرى مثله في وجوب التحري والتثبت من صحة الأقوال والنقول التي تتضمنها وتجلبها لتأييد ما تذكره من مسائل وأحكام، مما تكفل بنقده وتحقيقه ما ذكرناه من حواشي العلماء المغاربة وكتاباتهم المحررة في ذلك.

ولا ننسى اجتهادات الفقهاء التي تتمثل في كتب النوازل والفتاوى، ويا ما أكثرها، بحيث تكوّنت منها موسوعات فقهية كبيرة، مثل: المعيار المغربي، والجامع المغربي في فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، الذي جمعه أبو العباس الونشريسي في ثلاثة عشر مجلداً. وقد انتهى به إلى القرن العاشر الهجري. وعقب عليه الشيخ المهدي الوزاني بكتاب (المعيار الجديد)، الذي يتضمن فتاوى المغاربة في نوازل القرون التالية، إلى قريب من منتصف القرن الرابع عشر المنصرم. وهذه النوازل والفتاوى تكسر الجدار الذي أقامه البعض

أمام الاجتهاد في التشريع، وتلجم المتقولين على الفقه الإسلامي بالجمود والتحجر.

ومن نيبغاء أهل المغرب في علم العربية مَنْ جَادَبَ سيبويه حبل الذكر، وتقمص معه جلاباب الشهرة، وهو ابن آجروم، فذلك ألف (الكتاب) فضمنه علم النحو بجميع قواعده وشواهدده، وعصم لسان العرب من اللحن، على كونه أعجمياً، وهذا وضع (الأجرومية) فجعلها مقدمة الكتاب، ومدخلاً لم يلججه أحد إلا من بابها. وعبر زمان طويل لم يكن اعتماد العرب في تنقيف لسان أبنائهم إلا عليها، مع كون صاحبها أعجمياً أيضاً. ولقد بلغ من تقدير العرب لهذا الرجل ومقدمته الصغيرة أن أطلقوا اسمها على علم النحو فقالوا (الاجرومية) وعنوا النحو، حتى التبس ذلك على أحد الأعلام من رجال النهضة الحديثة، وهو الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة (المقتطف) وظن أن العرب أخذوا هذا الاسم من لفظ Grammaire اليوناني الأصل الذي يعني النحو.

ويلي ابن آجروم في الشهرة بعلم النحو أبو موسى الجزولي، صاحب الكراسة الشهيرة في هذا العلم، وتسمى أيضاً (المقدمة والقانون والاعتماد)، وقد كتبت بأسلوب جديد كان العلماء يمتحنون أنفسهم بها، وأنشد فيها ابن خلكان لابن ظهير الاربلي:

مقدمة في النحو ذات نتيجة تناهت فأغنت عن مقدمة أخرى
حباناً بها بحر من العلم زاخراً ولا عجب للبحر أن يقذف الدرا

وقد شرحها أبو علي علي الشلوبين، نحوى إشبيلية بل الأندلس بشرحين كبير وصغير في مجلدات. وشرحها ابن مالك وغيرهما. ومن الطريف ما حكاه

ابن عبدالمالك المراكشي في كتابه (الذيل والتكملة) عن الشلوبين، أنه قدم مراكش أول مرة وهو معتدّ بما عنده من هذا العلم للظهور في عاصمة الموحدين إذ ذاك، التي كان نفوذها يشمل المغرب العربي كله وبلاد الأندلس، وكان دخوله من باب دكالة، فانتحى مسجداً بقرب هذا الباب، فوجد به جماعة من طلبة العلم يتفاوضون في مسائل من النحو، فاستحسن مأخذهم في المذاكرة، وإذا بأبي موسى يدخل المسجد على هيئة أهل المهن ولكن الطلبة لما رأوه سكتوا وتحلقوا عليه، فأخذ يتكلم في بعض أبواب العربية، بضبط قوانينها، وتقييد مسائلها، وأحكام أصولها بما لا عهد لأبي علي به، فبهت عند ذلك وسقط في يده وقال: إذا كان هذا الموضوع الخامل في أطراف المدينة ينتصب للتدريس فيه مثل هذا المغربي البعيد في بادئ الرأي عن التكلم، فضلاً عن الاستبحار في النحو، فماذا يكون عليه الأمر في المجالس والمساجد بوسط المدينة؟ وانكفاً للحين عائداً لبلاد.

ومن نحاة المغرب الكبار ابن معطي صاحب الألفية، التي نظم ابن مالك ألفيته المعروفة على منوالها، وقال متحدياً لها: فائقة ألفيه ابن معطي، ثم عاد فقال:

وهو بسبق حائز تفضيلاً
مستوجب ثنائي الجميلاً
والله يقضي بهبات وافرة
لي وله في درجات الآخرة

وفي علم اللغة ناهيك بابن الطيب الفاسي، الذي أربت كتبه على الخمسين، من أعظمها فائدة وأكثرها عائدة حاشيته الكبرى على قاموس الفيروز آبادي، التي استقي منها كثيراً شارحه الشيخ مرتضى الزبيدي في تاج

العروس، واعترف بأنه شيخ في هذا العلم، ومالك بن المرحل الذي نظم
فصيح ثعلب، وابن منصور المغراوي صاحب عدة كتب في الغريب، كغريب
الشهاب، وغريب الرسالة وغيرهما.

أما في الشعر والآداب فنذكر الشاعر ابن حبوس الفاسي، وهو يعدل
بابن هانئ متبني المغرب، والكاتب أبو جعفر بن عطية، ويعدل بابن زيدون،
والشاعر الجرّوي صاحب كتاب صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية،
الذي يقول فيه ابن خلكان: "وجمع كتاباً يحتوى على فنون الشعر على وضع
الحماسة لأبي تمام الطائي، وسماه (صفوة الأدب وديوان العرب)، وهو كثير
الوجود بأيدي الناس، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق...
وله كل شعر مليح، وكان شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة، وتوفي في أواخر
سنة 609، بأشبيلية. والأديب الشاعر المتقن مالك بن المرحل، وكان غاية
في النوادر والحكم والأخبار، وامتاز من بين شعراء المغرب بتنوع مقاصده
وكثرة أغراضه وسعة عارضته وقوة ملكته، وله عدة دواوين شعرية ومؤلفات
في اللغة والأدب وفنون المحاضرة منها كتاب: "الضرب بالعصى والرمي
بالحصي" الذي حاور فيه ابن أبي الربيع النحوي، وغيره. واخترع عروض
الدوبيت المجزوء، كما قال لسان الدين بن الخطيب، ونظم فيه قصيدة غزلية
سائرة يقول في مطلعها:

الصب إلى الجمال مائل والحب لصدقه دلائل

وقد اشتهر هذا البحر، ونظم عليه كثير من الأدياء، ونشرت أخيراً في
العراق رسالة له فيه. قال ابن الخطيب: "وملحه في اختراع الأعرىض كثيرة".
إن فنحن بإزاء أوزان شعرية جديدة، تقوم إلى جانب الموشحات التي كانت
من اختراع الأندلسيين. وقد ذكر العلامة محمد بن عبدالمجيد بن كيران هذا

العروض ووزنه ووجه اسمه، وذلك في رسالته في علم العروض، ونسبه كذلك إلى ابن المرحل. ويشبه ابن المرحل في المتأخرين ابن زاكور، الأديب الشاعر المؤلف، وله ديوان شعر معروف وشرح على ديوان الحماسة سمّاه (عنوان النفاسة) وشرح على (قلائد العقبان) وكتب أخرى من هذا القبيل.

وبين ابن المرحل وابن زاكور شعراء آخرون كثيرون لا فائدة في ذكر أسمائهم من غير ذكر لآثارهم، ومنهم في عصره الشاعر الفحل الفيلسوف الطبيب أبو العباس أحمد الجزائلي، وفي العصر السعدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، الذي قال فيه المنصور الذهبي "تفتخر به على ملوك الأرض، ونباري لسان الدين بن الخطيب". ومعاصر ابن زاكور محمد بن الطيب العلمي وحده ترجم في كتابه (الأنيس المطرب)، لاثني عشر أديباً من أهل عصره، وذكر جملة من أشعارهم ورسائلهم، فيما الكثير الطيب. بل إن عَصْرَيْنَا المرحوم محمد غريب قد ذكر في كتابه (فواصل الجمان) نحواً من ثلاثين أديباً ممن أدركهم هو وترجمهم بطريقة النشر الفني الذي كان بارعاً فيه. فالمجال في هذا الباب واسع وما ألمنا به منه فيه مقنع.

وإذا التفتنا إلى فن التاريخ والتراجم فإننا نرى رصيد المغرب في هذا الفن مما يغني ويقني؛ فالمراكشي، وابن عذاري وابن أبي زرع، وابن القاضي، والفشتالي، والافراني، والقادري، والزياني، والناصر، ابن جعفر الكتاني، وابن زيدان، وغيرهم أسماء لامعة خدمت التاريخ السياسي، والأدبي لهذا الجناح من العالم العربي، خدمات جلى، لولاها لساد الظلام على فترات تاريخية، وحيوات أجيال يهم كل عربي، فضلاً عن أي مغربي، أن يعرفها لارتباطها بماضي موطنه الكبير، ولما تشتمل عليه من أحداث وأعمال يحق له أن يفخر بها، وَيُعَدُّهَا من مآثر أمتة العظيمة.

ولا ننسى الجغرافية والرحلات، فالشريف الإدريسي أول من وضع خريطة مدققة للعالم بعد بطليموس، وقد صنعها في شكل كرة من الفضة، ومثل عليها أقسام اليابس والماء، وتحرى في ذلك ما لم يتحره أحد قبله، بحيث بقيت خريطته هذه مدى سنين أصحّ خريطة للعالم. وألف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، بين فيه هذه الخريطة، وتوسع في جغرافية الأرض، فلكية وعمرانية وطبيعية، بما لا مزيد عليه في الدقة التي كان يمكن أن يتوصل إليها العلم آنذاك، وقد وقع الاحتفاء بخريطته وكتابه هذا في أوروبا منذ عصر النهضة الحديثة، فترجمت أجزاء منه، ونشرت خرائطه بعناية غير واحد من المستشرقين، ولا سيما ما كان منها فريداً في بابيه، كالكتابة التي جاءت فيه عن فنلندا. ولم يقتصر الاهتمام به على أوروبا، فقد قام المجمع العلمي العراقي بنشر خريطته نشرًا علمياً دقيقاً، وكتب عنه من أعلام العراق الدكتور أحمد سوسة كتاباً قيماً في مجلدين، وقام أخيراً في إيطاليا جماعة من المستشرقين بتحقيق كتاب النزهة ونشره كاملاً. ولصديقنا العلامة محمد بهجة الأثري عناية كبيرة بتحقيقه، العمل على إخراجها في طبعة علمية تناسب أهميته الجغرافية والتاريخية.

وجاء الرحالة ابن بطوطة بعده فجاب أقطار المعمور، وعرف من المجاهل في أفريقيا وغيرها ما لم يعرفه أحد قبله، وكتب لنا رحلته الممتعة (تحفة النظار)، التي ما تزال تستهوي الرواد وعشاق الأسفار في كل بلد حتى الآن. وهي بدورها قد ترجمت إلى عدة لغات، ونشرت في الشرق والغرب. وآخر نشرة لها فيما نعرف كانت في انكلترا في ثلاثة مجلدات كبيرة، مذيّلة بتحقيقات وتعليق مهمة جداً.

أما العلوم القديمة أو الكونية، التي تعدّ تراثاً مشتركاً بين جميع الشعوب، فإن المغرب لم يقصر فيها عن غاية بلغتها أمة من الأمم في العصور السابقة، بل شارك في تقدّمها، وعمل على نشرها، حتى أن ما كان أشرق من نورها على أوروبا في العصور المتوسطة إنما أشرق عليها من جهته، كما مرّ آنفاً. وقد اشتهر أن البابا سلفستري الثاني قد درس بفاس. كان يبهر معاصريه بتفنه في العلوم، وأنه الذي أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية. ولكن الثابت أنه درس بطليطلة ولا مانع أنه دخل مدينة فاس، ورأى توثب المغرب للنهضة العلمية، ولكن ما من خلاف على أنه الذي أدخل إلى أوروبا هذه الأرقام المستعملة فيها إلى الآن. وهي أحد الشكلين اللذين كان للعرب فضل ابتكارهما. أو نقلهما عن الهند وتطويرهما: هذا الشكل الذي أخذه الأوروبيون ويسمونه الأرقام العربية، وبه العمل في المغرب العربي، والشكل الذي يعرف بالهندي وبه العمل في الشرق العربي، نص على ذلك الرياضي المغربي المعروف ابن الياسمين في كتابه (تلقيح الأفكار).

وابن الياسمين هذا كان من الشخصيات العلمية الفريدة، وهو إلى تمكنه من الأدب والشعر، امتاز بتضلعه في العلوم الرياضية، واشتهرت أرجوزته في الحساب والجبر أيما اشتهار، وهي تتضمن خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي توجد في كتب الجبر الحديثة. وله كذلك كتاب (تلقيح الأفكار، في العمل برسوم الغبار) يعني الأرقام الحسابية بشكلها المذكورين، وهو كتاب مهم جمعه من مذكراته التي كان يلقيها على طلبته في العلوم الرياضية، وهو من كتب الخزانة العامة بالرباط، وكنا أول من انتبه إليه ونبّه عليه.

وبجانب ابن الياسمين بذكر ابن البناء العددي، الذي طبقت شهرته الآفاق، ورفع من ذكر مراکش بما نبغ فيه في علوم العدد والحساب والهندسة والنجوم، وقد ترجمت كتبه إلى اللغات الأوروبية من زمن طويل، وتبنى بعض الرياضيين الغربيين بعض نظرياته في هذا الصدد، كما كشف الستار عن ذلك الرياضي الفرنسي شال. ومن شدة تأثير كتبه في تقدم العلوم الرياضية أن كلمة Almanac، التي تفيد معنى التقويم الزمني، إنما أخذت من اسم كتابه (المنهاج) كما يقول سارطون، يعني (منهاج الطالب في تعديل الكواكب) وهو من كتبه المشهورة. وله في الحساب (كتاب التلخيص) سار كل مسار، وكتبت عليه الشروح العديدة، وقال فيه ابن خلدون "أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد". وله أيضاً (رفع الحجاب) وهو أكبر من التلخيص، قال عنه ابن خلدون "هو كتاب جليل القدر، أدركنا المشيخة تعظّمه، وهو جدير بذلك، إلى كتب أخرى في الفلك والهندسة والفلاحة والعلوم الروحانية.

وكان أبو علي الحسن بن علي المراكشي من أعظم رياضيي العرب في القرون الوسطى، اعترف له بذلك علماء الغرب المحدثون. وهو صاحب كتاب (المبادئ والغايات في علم الميقات)، الذي يقول فيه صاحب (كشف الظنون) "أنه أعظم ما صنف في هذا الفن"، وثوّه سيديو بصواب تصحيحاته في الجغرافية الفلكية، وبسببه إلى استعمال الخطوط الدالة على الساعات المتساوية، فإن اليونان لم يستعلموها قط.

ولو ذهبنا نذكر جميع الرياضيين المغاربة، وخصوصاً الفلكيين منهم، وما لهم من آثار، لما وسعنا هذا المجال الضيق، وفي خزانتنا من تأليف علماء المغرب في هذا العلم فقط عشرات الكتب والرسائل، فما بالك بما في غيرها، بله ما اندثر ولم يبق له أثر؟

ونبغ في الطب يوسف بن سمعون اليهودي، رفيق موسى بن ميمون وزميله في العمل، وأبو العباس الجزنائي، الذي كان كاتباً وشاعراً وفيلسوفاً وطبيباً وكيميائياً. وأبو القاسم الوزير، صاحب كتاب (المفردات الطبية) المشهور، وأسرة أدراق التي تسلسل الطب في عدة من أفرادها، وابن شقرون المكناسي صاحب (الشقرونية في علم تدبير الصحة)، وأبو القاسم الغول، وله أيضاً نظم طبي مبوب أحسن تبويب، وابن عزوز المراكشي، صاحب كتاب (ذهاب الكسوف في طب العيون) وغيرهم. وبلغت نهضة الطب أوجهاً في عهد المنصور الموحيدي، الذي بني مراكش أعظم مستشفى كان في عصره. ولنستمع إلى ما يقوله صاحب (المعجب) في وصف المستشفى: "وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، ذلك أنه، تخير مساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه، فأثقتوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك، في وسط أحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم يرسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشرية والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، وجهاز الصيف والشتاء. فإذا نقه المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ما له وتركه وسببه. ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى، ويسأل

عن أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غيري ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله".

ويكر المغاربة بوضع دوائر للمعارف العامة قبل أن يظهر هذا النوع من التأليف في العصر الحديث بقرون عديدة. ومن أحسن ما ينطبق عليه هذا الوصف كتاب (الاقنوم في مداخل العلوم) لعبد الرحمن الفاسي، تكلم فيه على نحو مئة وخمسين علماً، فاستوعب مبادئها، واستوفى حدودها بأوجز عبارة وأوضحها، وهو نظم من الرجز في عدة آلاف بيت. ولأبي الحسن اليوسي كتاب (القانون في احصاء العلوم وتفرعها) وما نشأ منها قديماً وما استتبط في الاسلام، واقتضاء الملة لكل ذلك. والمقارنة بالنظر الفلسفي بين العلوم العقلية والنقلية وتلخيص مطالب العلوم على اختلافها، مما يشبهه في غايته وطريقة بحثه كتاب (احصاء العلوم) للفارابي، وما كتبه ابن خلدون في المقدمة بهذا الصدد. وناهيك بفكر اليوسي الغواص العميق.

هذا ولم نشر إلى تخليد الآثار. وعمارة الأماكن والديار، فمصر وأهرامها، وبغداد وقصورها، والحمراء وزخارفها، لا يمكن أن تغطي على ما شاده المغاربة من مصانع هائلة، وما أنشؤوه من مدن عامرة، وما ابتدعوه من فن جميل. فلئن بني المنصور بغداد، والمعز القاهرة، فلقد بنا إدريس الثاني فاس، وابن تاشفين مراکش، وتانك عاصمتان إسلاميتان كبيرتان في إقليمين متباعدين، وهاتان عاصمتان إسلاميتان كبيرتان في إقليم واحد، طالما زهتا على عاصمتي المشروق بملوكهما وجيوشهما وعلماؤهما وأدبائهما، حتى لقد قيل كثيراً أن بلاطيهما كانا يموجان في مناسبات مختلفة بما لم يعهد في بلاط بغداد من أفواج الكتاب والشعراء، والفلاسفة والمؤرخين وغيرهم.

وإن ننسى من المصانع الهائلة الدالة على علو همة منشئها، فلا ننسى المآذن الثلاث: الكتبية بمراكش، والخيرالدة بإشبيلية، وصومعة حسان بالرباط، تلك الاثافي الثلاث التي تقوم دليلاً على عظمة فن المعمار بالمغرب، التي لو لم يكن للمنصور الموحدى أثر إلا هي لكفى. وكذلك يقال في مآثر السلطان مولاي إسماعيل العلوي، ومنشآته بمكناس التي حار الناس في أمرها، فنسبوا صناعتها إلى الجان. وقديماً نسبت العرب كل أمر غريب إلى عبقر.

أما في باب زخرفة البناء وتشبيده بالكلس والجص، وصنع المقرصات البديعة وتلوينها وتذهيبها، ونظم قطع الفسيفساء الجميلة وتنسيقها، الكتابة والنقش على الجص والخشب بكل تنوّق وتفنن، فهذه آثار بني مرين بفاس وغيرها، ومن أعجبها مدارسهم العلمية الشهيرة، وهذه قبور السعديين بمراكش كلها تشهد بما لهذا المغرب الأقصى من السبق في مضمار الفنون الجميلة، والإبداع في هندسة البناء الرفيعة، وليس العيان كالبيان .ولا ننسى الموسيقى وهي من الفنون التي تدل على سمو الذوق وازدهار الحضارة، ونخص الموسيقى المسماة بالأندليسة، وهي التراث الفني الموسيقي الحافل الذي يحتفظ به المغرب، والذي ألف فيه الموسيقار الكبير محمد بن الحسن الحايك كتابه المعروف باسمه، والذي حافظ فيه على الهيكل العام لهذه الموسيقى، وكان لولا تسجيله لها ربما آل إلى الضياع.

وهذه الموسيقى، وأن نسبت إلى الأندليس، فإن عامل التطور قد أضفى عليها حلة المغربية، ولا سيّما أنه ثبت أن بعض صنائعها، مثل طبع الاستهلال ونغمة المزموم، هما من وضع فنانيين مغاربة. أضف إلى ذلك ابتكارات أخرى وتحسينات في الأداء والآلات وغيرها.

ويهمنا أيضاً الكلام على الخط المغربي الذي يكون مظهراً من مظاهر الحضارة المتميزة. والفرق بينه وبين المشرقي والأندلسي واضح، ويلاحظ الانسجام بينه وبين الأرقام الحسابية المغربية في الهندسة الشكلية، وله أوضاع تختلف باختلاف الأسماء وما تستعمل فيه: فمنه المجوهر، المبسوط، والمسند، والكوفي، وهذا أيضاً له ميزته الخاصة، وكثيراً ما يستعمل في الزخرفة الكتابية على الجدران ونحوها، ولكنه مع الأسف كاد يضمحل.

وإن ننسى لا ننسى أنواع الملابس والفرش، والمبطن الذي طارت شهرته في البلاد. وفي عصر الموحدين كتب أحد المعتمدين تأليفاً في المطبخ المغربي، ذكر فيه مئات الأصناف من أطباق الطعام والحلويات والعصير والأشربة، ونشر هذا الكتاب المستشرق الإسباني (ويبي ميراندا) مع ترجمة إسبانية، وعلاقة المطبخ بموضوعنا تتبين من قول بعضهم: أرني مطبخ أي بلد أحدثك عن حضارته.

إن هذه الأعمال الكبيرة التي ذكرناها، والشخصيات العظيمة التي قدمناها، لو حذفت من التاريخ لطويت صحف من أعظم صحف المجد والخلود للأمة العربية، ولخسرت الإنسانية جانباً من التراث الفكري والحضاري الذي تعتر به الآن.

وهذا خير تقويم لمساهمة المغرب في بناء الحضارة العربية، بل أقربه إلى الإنصاف وأقله تبجحاً. ولعل من المناسب أن ننقل عبارة شهيرة للشيخ محمد بيرم التونسي، صاحب كتاب (صفوة الاعتبار)، جاءت في كتابه هذا. وهي قوله: "العمري أن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراکش". فإذا كان هذا الفاضل قد سجل ملاحظته هذه عن تفوق المغرب في العالم العربي في وقته في فن الإنشاء (وهو يعني كتابة

الرسائل الديوانية)، فكم من باب من أبواب المعارف ينتظر تسجيل ما للمغرب فيه من يد، كانت وما تزال ذخراً للعروبة وفخراً!

والمؤمل، والمغرب يبني استقلاله من جديد بقيادة عاهله الهمام الحسن الثاني، ويتعاون مع أشقائه في الأقطار العربية وسائر البلاد الإسلامية، أن يخطو خطوات مماثلة لما سجله في الماضي، ويحافظ على دوره الرائد في تقدّم الثقافة الإسلامية، وبناء الحضارة العربية، بما يعيد تاريخها المجيد، ويزيدها تألّقاً وسطوعاً وازدهاراً وعطاء. والواقع أن الأعمال الكبيرة والمشروعات العظيمة التي تُباشر وتُتجزأ باستمرار، تبشر بمستقبل باهر لهذا البلد الأمين والشعب المؤمن، حقق الله الرجاء.

عبدالله كنون

(طنجة- المغرب)